روسيا تخسر تدريجيا دائرة نفوذها!

08-2-2005

بسبب سياسات قصيرة النظر، فقدت روسيا تأثيرا كبيرا في جورجيا. وسياسة موسكو الخاطئة في أبخازيا وأوكرانيا أدت إلى اتساع نطاق الإحراج وعلاقات أكثر توترا ضمن دائرة نفوذ روسيا. وإذا لم يعكس بوتين هذا الاتجاه، فإن روسيا يمكن أن تفقد الدعم أثناء الانتخابات الأرمينية القادمة.

ترى روسيا أن تأثيرها في القوقاز -وبقية الإتحاد السوفيتي السابق- في تناقص بشكل ملحوظ منذ "الثورة الوردية" في نوفمبر 2003 في جورجيا. وبالرغم من أن الاقتصاد أحد الدوافع التي قربت روسيا من الولايات المتحدة والإتحاد الأوربي، فإن موسكو تلوم بشكل كبير جورجيا ما بعد الثورة على "الثورة البرتقالية" في أوكرانيا وخسارتها التأثير هناك. وبينما شارك كل من الرئيس الجورجي ميخائيل ساكشفيلي والرئيس الأوكراني فيكتور يوشنكو في مجلس الجمعية البرلمانية للمجلي الأوروبي في ستراسبورغ، التقى الرئيس الروسي فلاديمير بوتين زعماء سياسيين في موسكو، بمن في ذلك الرئيس المنتخب حديثا في أبخازيا سيرجي باغاش والمرشح الرئاسي الأوكراني المهزوم فيكتور يانوكوفيتش. ومن الواضح أن السياسات الروسية أصبحت معادية لجورجيا منذ وصول ساكشفيلي إلى السلطة. لكن قرارها لمعاقبة جورجيا وزعماء معارضة آخرين في الجمهوريات السابقة قد تعمل ضد المصالح الروسيةِ الطويلة المدى.

* أبخازيا:

الضربة الرئيسية الأولى لتأثير روسيا في منطقة نفوذها الخاص لم تكن الانتخابات في أوكرانيا، ولكنها كانت الانتخابات في أبخازيا في أكتوبر الماضي. رسميا، تعد أبخازيا جزءا من جورجيا، لكنها انتزعت استقلالها عمليا من تبليسي –عاصمة جورجيا- بعد أن فقدت هذه الأخيرة سيطرتها على الجمهورية خلال حرب التسعينيات. إن النظام الحاكم في أبخازيا مدعوم من قبل روسيا، حيث يراقب جنود حفظ السلام الروس الحدود مع جورجيا، كما أن الروبل الروسي، هي العملة المحليّة. وتدفع موسكو الرواتب التقاعدية وأصدرت جوازات سفر روسية على نحو واسع في كافة أنحاء أبخازيا.

قام المرشح راؤول خاجيمبا بحملة نشطة في الأوساط الموالية لروسيا، ووعد بزيادة في الاستثمارات من روسيا وعلاقات أقوى مع موسكو. بينما تعهد سيرجي باغاش، المعروف في أجهزة الإعلام الروسية كمرشح المعارضةَ، أيضا بإقامة علاقات أوسع مع روسيا. ولم يتكلم أي من المرشحين عن جورجيا بشكل إيجابي أو إمكانية تحسين العلاقات الأبخازية الجورجية. وكانت أجهزة الإعلام الروسية المصدر الوحيد للتغطية الدولية. وعلى الرغم من دعم من الكرملين والسياسيين الروس، خسر خاجيمبا الانتخابات رسميا في 3 أكتوبر، الأمر الذي أدى تقريبا إلى نشوب الحرب الأهلية عندما

رفض قبول نتائج الانتخابات، ووصلت الأحداث إلى ذروتها، عندما رفض الرئيس باغاش في ديسمبر، التخلي عن الخطط لتنصيبه.
وردا على الاضطراب غير المتوقع في جمهورية تعتمد كليا على الدعم الروسي، غلقت روسيا حدودها وقطعت التجارة مع أبخازيا، وبهذا حطمت مصدر الدخل الرئيس لأكثر سكان أبخازيا: تجارة الحمضيات. وتمكنت القوة من إجبار باغاش للانحناء أمام الضغوط الروسية. والاختلاف الحقيقي الوحيد بين المرشحين كان مطالبة باغاش بالاستقلال الفعلي لأبخازيا، واعتراف المجموعة الدولية به. في الوضعية الراهنة، فإن كلا من تبليسي وسوكومي، رفضا تطبيع العلاقات بينهما، كما رفضت جورجيا السماح لأي تجارة إلى أبخازيا بالمرور عبر حدودها. وفي حين، فإنه من غير المحتمل أن المجموعة الدولية ستعرف باستقلال أبخازيا، تم التعامل مع موقف باغاش القوي في ذلك الاتجاه كتهديد للوضع الحالي.
* الثورة البرتقالية:
على الرغم من المجهود الروسي الأقوى أثناء الانتخابات الأوكرانية في نوفمبر الماضي، فإن المرشح المدعوم من قبل روسيا لم يتمكن من هزيمة زعيم المعارضة فكتور يوشنكو، لكن بغض النظر عن سياسات هذا الأخير الغربية، فإن أوكرانيا تبقى شريكا تجاريا رئيسا لروسيا. من الناحية التاريخية، الدينية والعرقية، بين روسيا وأوكرانيا صلات وثيقة. ولعل هذا ما يفسر سفرة الرئيس الجديد الدولية الأولى لموسكو، ولو أنه توجه بسرعة بعدها إلى ستراسبيرغ.
ويبقى السؤال الحقيقي هو ماذا يعني الاتجاه المتزايد للانتفاضات السلمية بالنسبة للرؤساء المدعومين من روسيا في الجمهوريات السابقة الأخرى؟.
وعند الرئيس الأوكراني يوشنكو سنة كاملة ليثبت لبلاده المنقسمة بأن أوكرانيا ستستفيدُ من علاقات أفضل بالدول الغربية. وإذا حاولت روسيا أن تخرب تأثيراته بشكل مكشوف -مثل ما هو قائما حاليا في أبخازيا وجورجيا-، فإن بوتين يخاطر بإثارة رد فعل جدي أكثر بكثير أثناء الانتخابات البرلمانية القادمة. وبمساندتها ليوشنكو، فإن روسيا يمكن أن تعمل على تقوية أوكرانيا، وهذا يؤدي بدوره إلى تحالف أقوى بين البلدين ويساهم في استقرار المنطقة. وأي جهد من قبل موسكو لإثارة عداء البلد، خصوصا نصفها الغربي، فإن هذا يمكن أن يكون له نتائج عكسية.
وأي نزاع عرقي جديد سيضعف فرصة روسيا لزيادة تأثيرها في المنطقة، خاصة وأن كلا من الزعماء الحاليين وقوات المعارضة في كافة أنحاء الإتحاد السوفيتي السابق، يراقب التطورات أوكرانية مباشرة. وإذا أصبح واضحا بأن موسكو سوف لن تتحمل أي تحرك أو تطور لإضعاف تأثيرها في المنطقة، فإن المساعدات الاقتصادية والعسكرية من الغرب سيبدو مرغوبة أكثر. وبينما قد يلقى الزعماء الحاليون ترحيبا كبيرا من روسيا، فإن المعارضة ستعْمل بقوة أكثر لتحرير بلدانها من تأثير موسكو، وهذا في حال أصبحت روسيا تراهم ليس كدول ذات سيادة ولكن كمشاكل داخلية!.
* علاقة روسيا الخاصة مع جورجيا
تدخل موسكو المستمر في المشاكل العرقية لجورجيا لم تعزز دورها في القوقاز. فحتى قبل "الثورة الوردية"، جهود روسيا لزعزعة المنطقة وإجبارها على الاستسلام بالقوة

العسكرية أثرت عكسيا. في 2002، اتهمت موسكو تبليسي بإيواء "الإرهابيين" في منطقة بانكيسي الفوضوية الواقعة على الحدود مع الشيشان. بدلا من أن يُؤدي الاتهام إلى زيادة أفراد الجيش الروسي في جورجيا، تعززت العلاقات بين جورجيا والولايات المتحدة، وتحملت واشنطن أعباء برنامج تدريب وتجهيز الجيش الجورجيِ. ومنذ وصول ساكشفيلي إلى السلطة، سخرت جورجيا كل إمكاناتها لتقوية الروابط مع الولايات المتحدة وأوروبا.

والقصد من وراء دعم روسيا المستمر للزعماء الانفصاليين في أبخازيا وجنوب أوسيتيا، هو ردع الاستقرار –ومن ثم ضرب الاستثمار الأجنبي- في جورجيا. وفي الواقع، فإن تدخل روسيا الواضح ساعد القيادة الجورجية على التوجه نحو الغرب.

وتحرك موسكو الجديد، والمتمثل في نقض استمرار مراقبة منظمة الأمن والتعاون في أوروبا بشكل دوري حدود الشيشان، إنجوشيّا، وداغستان، كان أكثر نجاحاً. ففي ظل السياسة الحالية، تضمن روسيا بأن لا أحد من المراقبين الدوليين سيراقب الحدود بحلول نهاية الربيع. وعندما تذوب الثلوج، فإن المقاومين الشيشانيين سيجدون ممرا سهلا إلى جورجيا، وطبقا لروسيا، فإنه سيكون عند موسكو أيضا سبب كافي لقصف منطقة بانكيسي، أو إجبار جورجيا على قبول عددا إضافيا من جنود حفظ السلام الروس داخل الحدود الجورجية.

لكن هذا يمكن أن يُؤثر عكسيا أيضا، حيث إن ساكشفيلي وإدارته ما زالا، بشكل نشط، يبحثان عن البدائل لجنود منظمة التعاون والأمن الأوروبي، وقد أبدى الاتحاد الأوروبي اهتماما بهذا. وإذا كان من الصعب الإتيان بمراقبين تابعين للاتحاد الأوروبي، فإن أي تحرك لوضع المراقبين الدوليين المستقلين، سيعاكس رغبات روسيا.

* متاعب في أرمينيا:

الهزيمة المحتملة الأخرى، تنتظر النفوذ الروسي المتآكل في أرمينيا. في الماضي، كانت أرمينيا معقل الدعم الروسي في القوقاز. دعمت روسيا البلاد لمدة طويلة عسكريا واقتصاديا، على سبيل المثال، كانت أرمينيا تستلم كل احتياجاتها من الغاز من روسيا. كما ساعدت روسيا أرمينيا أثناء نزاع "ناغورنو كاراباخ" مع آذربيجان، وما زالت تقف بحزم وراء "يريفان" خلال محادثات السلام حول الأراضي المتنازع عليها. وأثناء الاضطراب المدني في جورجيا في 2003، أصدرت كل من روسيا وأرمينيا بيانات مشتركة حول علاقتهما القوية والمفيدة بشكل متبادل. وقوت روسيا وجودها العسكري القوي في أرمينيا، وزادت مبيعات الأسلحة وحركت بعض أفراد جنودها من القواعد العسكرية في جورجيا إلى أرمينيا أثناء الاحتجاجات في تبليسي.

ورغم هذا، فإن دعم أرمينيا للتأثير الروسي ليس قويا كما كان عليه الحال قبل سنة. فبينما تعززت أسهم المعارضة بسبب نجاح الثورة الوردية في جورجيا، إذا بتطور سلبي مهم بالنسبة لروسيا حدث في سبتمبر 2004، بعد الهجمات في بيسلان. فعندما غلقت روسيا حدودها مع جورجيا بعد الهجوم، حوصرت مئات الشاحنات والحافلات الأرمينية لمدة شهر، غير قادرة على الذهاب إلى روسيا أو العودة إلى أرمينيا. وفي حين ليس هناك أرقام عن حجم خسارة الأعمال التجارية الأرمينية خلال ذلك الشهر، غير أن الأرمن شعروا بالإهانة من قبل حليفهم، وانزعجوا كثيرا من رد فعل روسيا لمعاقبتهم مع بقية

القوقاز. والذي عزز من حالة الاستياء، دعم روسيا المستمر للرئيس روبرت كوكاريان، الذي قوبل فوزه في انتخابات 2003 بمعارضة واسعة من الأحزاب المعارضة والجمهور. ومنذ "الثورة الوردية"، أولت واشنطن اهتماما أكثر بارمينيا. حيث إن الإحساس بضعف العلاقات الروسية الأرمينية خلال السنة الماضية، تم التقاطه بسرعة من طرف واشنطن.

الخاتمة:

بسبب سياسات قصيرة النظر، فقدت روسيا تأثيرا كبيرا في جورجيا. وسياسة موسكو الخاطئة في أبخازيا وأوكرانيا أدت إلى اتساع نطاق الإحراج وعلاقات أكثر توترا ضمن دائرة نفوذ روسيا. وإذا لم يعكس بوتين هذا الاتجاه، فإن روسيا يمكن أن تفقد الدعم أثناء الانتخابات الأرمينية القادمة.

وبالرغم من أن زعماء المعارضة مدركون جيدا لأهمية العلاقات الجيدة مع بوتين، فإن الألعاب السياسية تجبرهم على الاتجاه نحو أوروبا والولايات المتحدة على نحو متزايد طمعا في المساعدة والدعم، في محاولة لإحداث توازن أكثر بين روسيا والغرب.